# مشكلات الفواصل

أشرت في الفصل السابق إلى طرف من هذه القضية ، وأوردت بعض الآيات القرآنية التي قد تعلق بها من لا دراية له بأسرار العربية ، وبأسرار إعجاز القرآن الكريم – بخاصة – وقلت في نهاية الفصل : (وبعد فهذا حديث عن الفواصل في القرآن الكريم تضمن أهم القضايا فيها ، ولكنه لم يوفها حقها من البحث والاستقصاء) .

ولما كانت الآيات التي ختمت بها يناسب صدورها مناسبة ظاهرة لا تلفت نظر المتفطن لأسرار بلاغة القرآن إلا بمقدار ما يتبادر إلى ذهنه وقلبه – لأول وهلة – ومن روعة النظم ، وسمو التعبير ، ودقة المناسبة بين أول الآية وآخرها . إذا كان الأمر كذلك فلن أطيل الوقوف عند هذه الآيات ، وهي كثيرة في القرآن الكريم ، لأن أمرها لا يغمض على من له أدنى بصر بالأساليب البيانية العالية .

وكان لابد من وقفة متأنية مع الآيات الكريمة التي ربما يوهم نظمها – باديء ذي بدء – أن ختامها غير متسق مع صدرها ، فتحتاج عند قصار النظر إلى كشف الأسرار البلاغية ، والدينية التي اقتضت أن يكون نظمها على هذا الوجه دون غيره.

وهذا ما سماه المتقدمون : ( مشكلات الفواصل ) .

وقبل أن نتعمق في هذا الموضوع ينبغي أن نبدأ بكلمة قالها الفخر الرازي ، وهو من نعرف نفاذ بصيرة ، وعمق بصر ، ودقة بحث وراء الأسرار والمعاني ، ودءوب تفكير وتدبر لما وراء هذه الأسرار ، وهذه المعانى .

تلك هي قوله عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ [لقمان : ١٩] : ( هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي ؟ فنقول: نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها ، وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ، ولا يصيبه عد ، ولا يعلمه أحد ) .

وكلمة أخرى للرازي نثبتها هنا أيضاً بين يدي حديثنا عن مشكلات الفواصل جاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ من سورة العنكبوت ، جاء قوله : ( ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم أن العقول البشرية تدرك بعضها ، ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً .

ولا يقال أن كلمتي الرازي هاتين ربما بعثتا الشك في القلوب المريضة ، وربما دعتا القلوب السليمة إلى شيء من التوقف : أن يكون في كلام الله تعالى ، وفي مناسبة بعض الآي لبعض ما لا يمكن أن نعلمه ، حتى مع طول البحث ، وإدامة النظر ، وشدة التقصِّي ، لا يقال هذا ، لأن القضية الأولى ثابتة لم يطرأ عليها شك . أعنى قضية إعجاز القرآن ، وأنه تحدى العرب - وهم أهل اللسن والفصاحة - أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فلم يستطيعوا ، مع ما نعلمه ، وتعلمه الأجيال كلها ، والمعنيون بدراسة التاريخ الديني للإسلام من مؤمنين وكافرين وملحدين ومعاندين ومنافقين - مع أن العرب مع شدة حرصهم على إبطال حجة النبي ﷺ واجتهادهم في ذلك ، وكثرة أعوانهم عليه لم تؤثر عنهم كلمة واحدة في الطعن على نظم القرآن ، أو على أية كلمة من كلماته ، بل الذي أثر عنهم وصفه بما يشهد بعلو درجته في البلاغة ، ويكفي أن الكلمة التي أرضتهم وسكنوا إليها وحمدوا قائلها وصف القرآن بأنه ( سحر ) ، كما جاء ذلك على لسان الوليد بن المغيرة حين طلب إليه قومه أن يقول في القرآن ما يعيبه به : ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر : ١٨ - ٢٥].

فعيب القرآن عندهم أنه سحر ، وهل يكون سحراً وهو - عندهم - موضع نقد . أو طعن في لغته أو نظمه أو معانيه ؟

حتى الأوصاف الأولى التي وصفوا بها القرآن كانت تدل على الروعة والخلابة وتشهد بأنهم يقرون ببلاغته وفصاحته ، قالوا إنه شعر ، وقالوا إنه قول كاهن ،

وقالوا أساطير الأولين ، وما قالوا ذلك وهم يرون أنه موضع لمؤاخذة من ناحيتيه اللغوية والبيانية.

وقد سأل رجل بعض العلماء عن قول الله عز وجل : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ فأخبر أنه لا يقسم ، ثم أقسم به في قوله : ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ فقال العالم للسائل : أي الأمرين أحب إليك ، أجيبك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبك ؟ قال : لا . بل اقطعني ثم أجبني . فقال له : إعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال ، وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً ، وعليه مطعناً ، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به ، وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت ، ثم قال له : إن العرب قد تدخل ( لا ) في أثناء كلامها ، وتلغي معناها .

ويبدو أن هذا العالم أخذ إجابته هذه من ( أبي هذيل العلاف ) [1] فقد جاء إليه رجل ، وقال : أشكلت على آيات من القرآن توهمني أنها ملحونة . فقال أبو الهذيل : أأجيبك بالجملة أو تسألني عن آية آية ؟ قال : بل تجيبني بالجملة . فقال أبو الهذيل : هل تعلم أن محمداً كان من أوسط العرب وأن العرب كانوا أهل جدل ؟ قال : نعم . قال : فهل تعلم أن العرب اجتهدوا في تكذيبه ؟ قال : نعم . قال : فهل تعلم أنهم عابوه باللحن ؟ قال : لا . قال أبو الهذيل : فتدع قولهم مع علمهم باللغة ، وتأخذ بقول رجل من الأوساط؟! [2].

أما أن العرب – وخاصة قريشاً – كانوا أهل جدل ، ولدد في الخصومة ، فيشهد لذلك قوله تعالى : ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف : ٥٨] .

---

١- رأس من رؤوس المعتزلة ، كان أستاذ المأمون الخليفة العباسي ، وقد فضله المبرد على الجاحظ في المناظرة . توفى سنة ٢٣٥ هـ .

٢- ضحى الإسلام جـ٣ ، ص ١٠١ .

وقوله علت كلمته : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم : ٩٧] .

وأما أنهم اجتهدوا في تكذيبه ، والطعن عليه ، وعلى القرآن الكريم فيدل عليه تكلفهم للأمور الخطيرة في محاربته ، والصد عن دعوته ، وقد كانوا موصوفين برزانة الأحلام ووقارة العقول والألباب ، ولو أنهم وجدوا إلى الطعن في القرآن سبيلاً لكان ذلك كافياً في إبطال دعوة محمد ، ولكفاهم مئونة حرب لا يعلمون على من تدور فيها الدائرة ، ولو أنهم طعنوا لنقل ذلك إلينا جيلاً بعد جيل ، فإن الدواعي كانت متوفرة في عهد البعثة ، وفي كل جيل بعد ذلك على نشر ما يسيء إلى الدعوة والداعي ﷺ .

****

وسبيلي في هذا الفصل الشائك أن أجيء بالشواهد مما وقف عنده العلماء متبصرين باحثين عن السر البلاغي ، وأن أذكر ما وقفت عليه مما قيل في ذلك . فإذا منَّ الله – بعد ذلك – بوجه أظن أنه مقبول ذكرته ، وإذا وجدت أن كلام العلماء غير مقنع ، ولم يفتح الله بوجه مقبول فوضت علم ذلك إلى الله ، وقلت مقالة الرازي إنني أؤمن به ، وأعتقد أنه في أعلي درج البلاغة ، وإن لم نعلم السر في هذا الذي أشكل علينا علمه وفهمه وعسى أن يفتح الله على غيرنا بوجه مقنع مقبول .

وأقف عند آيات وقف عندها ( بدر الدين الزركشي ) في كتابه ( البرهان في علوم القرآن ) ، ثم أثنِّى بما وقفت أنا عنده وأنا أتلو كتاب الله تعالى ، وفي كل من النوعين سأذكر ما اطلعت عليه من تأويلات بعض المفسرين .. والله المستعان .

قال الزركشي : ومن خفيِّ هذا الضرب ( المشكل من الفواصل ) قوله تعالى في سورة البقرة آية ٢٩ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقوله في (آل عمران آية ٢٩): ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

فإن المتبادر إلى الذهن في آية ( البقرة ) الختم بالقدرة ، وفي آية ( آل عمران ) الختم بالعلم ، ولكن إذا أنعم النظر علم أنه يجب أن يكون ما عليه التلاوة في الآيتين.

ولم يبين الزركشي سر ما يؤدي إليه إنعام النظر من أن التلاوة يجب أن تكون على ما في الآيتين ، ولكن يفهم من كلام بعض المفسرين أن ذكر العلم في آية البقرة يشير إلى أن الله سبحانه خلق السموات والأرض وما فيهما على وفق علمه بمصالح العباد ، وما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، وإلى أن العالم بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها ، الخبير بمصالحها جدير بأن يخلق كل ما يخلقه على الوجه البديع الرائق .

وأن ذكر القدرة في آية ( آل عمران ) يشير إلى أن الذات المتميزة بالعلم ، متميزة أيضاً بالقدرة الذاتية الشاملة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض المفسرين جعل : ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بياناً لقوله سبحانه : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ ، وهو اتجاه حميد : أن ينظر إلى التذييل – ليس فقط بحسب صدر الآية التي هو فيها ، وإنما أن ينظر إليه على أنه مرتبط بما سبقه.

وإن كان صاحب المنار أسرف في ذلك حيث جعل قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ في سورة ( البقرة ) متصلاً بأول الآيات في تقرير رسالة النبي ﷺ ، ومبطلاً لشبه الذين أنكروا أن يكون البشر رسولاً ، والذين أنكروا أن يكون من العرب رسول ، لأن قصارى ذلك كله – كما يقول – اعتراض الجاهلين على من هو بكل شيء عليم .

وقد أبعد – والله – النُّجعة ، فإن : ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ هي الآية الثالثة والعشرون ، وهذه الآية التي جعلها تذييلاً مرتبطاً بها هي الآية التاسعة والعشرون ، وبينهما آيات تتحدث عن الجنة ونعيمها مما وعد به المؤمنون ، وعن ضرب الأمثال ، وعن الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وعن كفر الكافرين بالله الذي أحياهم بعد أن كانوا أمواتاً ، ثم يميتهم ثم يحييهم .

ولا يشفع له في ذلك دعوي أن هذه الآيات ، متصل بعضها ببعض فهذا حق ، لكن ليست كلها في شأن الرسالة والرسول حتى يكون هذا التذييل مرتبطاً بهذا المعنى.

كما أن ما ذكره من إنكار أن يكون البشر رسولاً ، واستبعاد أن يكون للعرب رسول ليس له ذكر في الآيات إلا ما يلمح لمحاً حين يجعل الضمير في « مثله » راجعاً إلى النبي ﷺ .

ولو أنه جعل التذييل متصلاً بالآية الأخيرة من هذه الآيات : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لكان له وجه.

على أن عبارة النسفي في هذا المقام واضحة وموجزة : وهو بكل شيء عليم فمن ثم خلقهن خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت ، مع خلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهن .

ونعود إلى الزركشي ، قال : ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [النور : ٩ ، ١٠] فإن الذي يظهر في أول النظر أن الفاصلة ( تواب رحيم ) لأن الرحمة مناسبة للتوبة وخصوصاً من هذا الذنب العظيم ، ولكن ههنا معنى دقيق من أجله قال ( حكيم ) وهو أن ينبه على فائدة مشروعية اللعان ، وهي الستر عن هذه الفاحشة العظيمة ، وذلك من عظيم الحكم ، فلهذا كان حكيم بليغاً في هذا المقام دون رحيم .

وقد شرح أبو السعود المعنى الذي أشار إليه الزركشي ، قال : ( حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان ..... لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما في الفضاحة ، وبعد ما شرع لهم ذلك لو جعل شهادته موجبة لحد الزنا لفات النظر لها ، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة ، فجعل شهادات كل منهما – مع الجزم بكذب أحدهما حتماً – دارئة لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية ) .

وهذا كله – أيضاً – من فضل الله عليهم ، ورحمته بهم .

على أن هنا سراً آخر لإيثار صفة الحكمة على صفة العلم ، وذلك أنه لو قيل (رحيم) لكان تكراراً مع ( رحمته ) ، ولنبا النظم عن الذوق ، ويكفي أن تسمع : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ لتدرك من أول وهلة نبو هذا التذييل عن صدر الآية ، مع ملاحظة أن الفضل ، وإن كان فيه من الحكمة ما فيه ، ولكنه في معناه أقرب إلى الرحمة ، وعندئذ تكون كلمة ( رحيم ) غير جديرة بأن تختم بها هذه الآية ، لأنها حينئذ تكون تكراراً لمعني صريح في كلمة ( رحمته ) ولمعنى ضمن في كلمة فضل ، فكانت البلاغة كل البلاغة أن تختم الآية بكلمة (حكيم) كما هي التلاوة .

وقد تضمنت الآية أربع صفات كريمة ، وصف الله سبحانه بها نفسه فهو ذو فضل وذو رحمة ، وهو تواب وحكيم ، وكلها لابد منها في قضية ذات بال بين فيها أسلوب الاتهام ، وطريقة الدفاع ، ثم الحكم الذي لم يدن واحداً منهما ، بل قضى بالتفرقة بينهما .

ولا شك أن في كل ذلك من الفضل والرحمة والحكمة ما فيه ، فالزوجة إن كانت بريئة فستظل تنظر إلى زوجها – إن عاشت معه – بقلب مملوء بالغيظ والحقد لأنه أهانها في أعز ما تملك ، وسيكون من أشق الأمور عليها أن تعاشره.

وإن كانت مخطئة فستشعر دائماً بالخجل والخزي كلما وقع نظرها عليه ، وستضيق كل الضيق بهذا الجو الذي شهد فضيحتها ، وتتمنى لو تعيش في جو آخر ، في بيت أبيها ، أو في بيت زوج جديد حيث تنسى أو تتناسى ما كان منها ، ومع ذلك فسوف لا تغفر لزوجها أنه لم يستر عليها ، ولم يكتم ما علم من أمرها .

والزوج سيجد من العسير عليه أن يعاشر زوجته التي داست كرامته ، وأوطأت فراشه غيره ، إن كان صادقاً ، وسوف لا يبقى على عشرتها ، ولا يحفظ لها وداً إن كان اتهمها زوراً وبهتاناً ، لأن ذلك دليل كراهيته لها ، وزهده فيها .

ودواء ما لا تشتهيه النفس تعجيل الفراق

فكان التفريق بينهما منتهي الحكمة ، ثم فيه من الفضل والرحمة والتهيئة للتوبة ما فيه .

****

وقد نقل الزركشي عن بعض من تقدموه من أصحاب الدراسات القرآنية ثلاثة أوجه لتعليل التذييل في قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء : ٤٤] بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشياء كلها وتنزيهها له تعالى – .

**أحدها** : إن فسر التسبيح بأن الأشياء مودعات من دلائل العبر ، ودقائق الإنعامات والحكم ما يوجب تسبيح المعتبر المتأمل ، فكأنه سبحانه ، يقول : إن كان من كبير إغفالكم النظر في دلائل العبر مع امتلاء الأشياء بذلك . وموضع العتب قوله سبحانه : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف : ١٠٥] كذلك موضع المعتبة قوله : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ ، وقد كان ينبغي أن يعرفوا بالتأمل ما يوجب القربة لله مما أودع مخلوقاته مما يوجب تنزيهه . فهذا موضع حلم وغفران عما جرى في ذلك من الإفراط والإهمال .

**الثاني** : إن جعلنا التسبيح حقيقة في الحيوانات بلغاتها فمعناه : الأشياء كلها تسبحه وتحمده ولا عصيان في حقها ، وأنتم تعصون ، فالحلم والغفران للتقدير في الآية وهو العصيان .

**الثالث** : أنه سبحانه قال في أولها : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي أنه كان لتسابيح المسبحين حليماً عن تفريطهم ، غفوراً لذنوبهم .

واختار الفخر الرازي الوجه الأول في تفسير الآية ، وهو أن ( التسبيح المضاف للجمادات ليس إلا بمعنى الدلالة على تنزيه الله تعالى ) ، ورد الوجه الثاني ، وبالغ في رده : **أولاً** : بأن لو جوزنا في الجماد أن يكون عالماً متكلماً لعجزنا عن الاستدلال بكونه تعالي عالماً قادراً على كونه حياً ، وحينئذ يفسد علينا باب العلم بكونه حياً ، وذلك

كفر ، فإنه يقال : إذا جاز في الجمادات أن تكون عالمة بذات الله تعالى وصفاته وتسبحه مع أنها ليست بأحياء ، فحينئذ لا يلزم من كون الشيء عالماً قادراً متكلماً كونه حياً ، فلم يلزم من كونه تعالى عالماً قادراً كونه حياً ، وذلك جهل وكفر ، لأن من المعلوم بالضرورة أن من ليس بحي لم يكن عالماً قادراً متكلماً . هذا هو القول الذي أطبق العلماء المحققون عليه .

**ثانياً** : لو حملنا التسبح هنا على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرماً ولا ذنباً ، وإذا لم يكن جرماً ولا ذنباً لم يكن قوله : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لائقاً بهذا الموضع . قال : فهذا وجه قوي في نصرة القول الذي اخترناه .

وعلل لهذا التذييل بناء على الوجه الذي اختاره بأن ذكر الحليم والغفور ههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم .

****

وفي الفصل السابق ذكرت بعض الآيات التي عرض لها صاحب البرهان ، في إجابته عما أشكل فيها من الفواصل ، وأكتفى بهذا القدر . وأذكر الآيات التي وقفت عندها ، وما قاله بعض المفسرين فيها ، ولعلي أوفي على الغاية أو أقارب في بيان السر البلاغي من التذييلات التي ختمت بها هذه الآيات الكريمة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس : ٧٨ - ٧٩] ربما توهم أن الفاصلة ينبغي أن تكون : ( وهو على كل شيء قدير ) . ولكن لما كانت أجزاء الإنسان المعادة ربما تفرقت في جهات مختلفة متعددة ، بل ربما اختلطت بأجزاء إنسان آخر كانت صفة العلم هنا لازمة للتفرقة بين الأجزاء الأصلية ، والأجزاء الفضلية ، فيعيد كلاً من ذلك على النمط السابق ، وهذا لا يكون إلا من عليم بتفاصيل كيفيات الخلق والإيجاد إنشاء وعادة ، محيط بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الأشخاص ، أصولها وفروعها ، وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت : ٦١ - ٦٢] ربما وقع في بادئ الظن أن التذييل ينبغي أن يكون : ( إن الله على كل شيء قدير ) ، ولكن صفة العلم هنا هي الملائمة كل الملاءمة ، فهو سبحانه عليم بمقادير الحاجات ، ومقادير الأرزاق .

قال الفخر الرازي : ( وفي إثبات العلم هنا لطائف :

**إحداها** : أن الرازق هو كامل المشيئة ، إذا رأي عبده محتاجاً ، وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق إلا لنقصان في نفوذ مشيئته ، كالملك إذا أراد الإطعام والطعام لا يكون قد استوى بعد ، أو لعدم علمه بجوع العبد .

**الثانية** : أن الله بإثبات العلم استوجب [1] ذكر الصفات التي هي صفات الإله ، ومن أنكرها كفر ، وهي أربعة : الحياة والقدرة والإرادة والعلم ، وقد استوفت الآيات الأربع ، لأن قوله : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله : ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى نفوذ مشيئته وإرادته ، وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى شمول علمه . والقادر المريد العالم لا يكون إلا حياً .

ومن ذلك آيات من القرآن الكريم ختمت بالحلم والمغفرة ، أو بالعفو والمغفرة ، أو بالرحمة والمغفرة ، وربما وقع لبعض الأوهام أن هذه التذييلات في غير موضعها ، وأن غيرها أولى بهذه الأمكنة منها ، وعلى أحسن الظن ربما خفى على كثير من الدارسين سر التذييلات فيها .

من ذلك قوله تعالى : ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٢٥] .

ومثلها قوله سبحانه : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥] .

---

١ - لعلها : استوفى .

فالإخبار عن المؤاخذة بما كسبت القلوب ، وعن لزوم الجناح على ما تعمدته يستدرج الذهن إلى أن يكون التذييل مما يؤكد أمر المؤاخذة ، ومما يرهب ويخيف ، حتى يدعو ذلك إلى الامتثال ، لأن الحكيم لا يذكر العفو مع التهديد لأنه يكون إغراء بالذنب . وهنا ختمت كل من الآيتين بالغفران ، مع الحلم في إحداهما ، والرحمة في الأخرى .

وقد قال أبو حيان في ( البحر المحيط ) معقباً على الآية الأولى : ( جاءت هاتان الصفتان تدلان على توسعة الله على عباده ، حيث لم يؤاخذهم باللغو في الأيمان ، وفي تعقيب الآية بهما إشعار بالغفران والحلم عمن أوعده الله بالمؤاخذة ، وإطماع في سعة رحمته ، لأن من وصف نفسه بكثرة الغفران والصفح مطموع فيما وصف به نفسه ، فهذا الوعيد الذي ذكره تعالى مقيد بالمشيئة كسائر وعيده تعالى ) .

وجعل أبو السعود الكلمة الأولي من التذييل متعلقة بالجزء الأول من الآية : فالله سبحانه غفور حيث لم يؤاخذ على اللغو مع كونه ناشئاً من عدم التثبت ، وقلة المبالاة والكلمة الثانية متعلقة بالجزء الثاني ، فهو سبحانه ( حليم ) حيث لم يعجل بالمؤاخذة .

وقيل في الآية الثانية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾لا يؤاخذكم بالخطأ ، ويقبل التوبة من المتعمد ، ولكن لم يجر للتوبة ذكر هنا .

****

ومما يقرب من هاتين الآيتين قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

فالمراد هنا الأمر بإضفاء الجلابيب عليهن ، وامتثال الأمر إنما يتحقق إذا وصل بالوعيد على مخالفته ، أما وصله بالمغفرة والرحمة فذلك يدعو إلى التهاون في التنفيذ .

وقد قال بعض المفسرين : وكان الله غفوراً لما سلف منهن من التفريط ﴿رَّحِيمًا﴾ بتعليمهن آداب المكارم ، ومثل هذا الجواب جاء في قوله تعالى – في سورة النساء – ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ولا يتجه هذا الجواب إلا على الرأي الذي يقول إن الناس مكلفون بمكارم الأخلاق بحكم العقل ، وقد تعلق بذلك فعلاً بعض المفسرين كالزمخشري ، وهو معتزلي معروف .

وقريب من هذه الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج : ٢٠] .

وقد احتفل المفسرون لبيان المناسبة في هذه الآية بين أولها وآخرها ، وأطال في ذلك الزمخشري قال : ( فإن قلت : كيف طابق ذكر العفو الغفور هذا الموضع ؟ قلت : المعاقب مبعوث من جهة الله عز وجل على الإخلال بالعقاب ، والعفو عن الجاني على طريق التنزيه لا التحريم ، ومندوب إليه ، ومستوجب عند الله المنح إن آثر ما ندب إليه ، وسلك سبيل التنزيه ، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ، ولم ينظر في قوله تعالى : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله ــ وأن تعفوا أقرب للتقوى ــ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) . فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي لا يلومه على ترك ما بعثه عليه ، وهو ضامن لنصره في كرته الثانية من إخلاله بالعفو ، وانتقامه من الباغي عليه .

ويجوز أن يضمن النصر له على الباغي ، ويعرض – مع ذلك – بما كان أَولى به من العفو ، ويلوح بذكر هاتين الصفتين .

أو دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة ، لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده .

وقد نقل ذلك الفخر الرازي في تفسيره الكبير – على عادته من كثرة النقل من الكشاف – ولم يزد عليه شيئاً .

ويبدو لي أن كل هذه الأجوبة غير مقنعة تماماً لا سيما الجواب الأخير ، فإن الدلالة بذكر العفو على القدرة لا يمنع أن يكون هنا سر لإيثار هذه الكلمة ( العفو ) على ضدها ، وهو ( القادر ) مع أن الموضع لهذا المعنى الأخير .

ثم إن الله سبحانه كيف يعده بالنصر على من بغى عليه ، إذا عاقبه بمثل ما عاقب به ، ويذكر ذلك مؤكد بإن واللام . ثم يجعل هذا التصرف منه ذنباً يعده عليه بالعفو والمغفرة ؟!

أما الجواب الثاني ، وهو أن الله سبحانه وتعالى أشار بذلك إلى أنه ينبغي الصفح والعفو جواب حسن لو أن النظم الكريم : ( وإن الله لعفو غفور ) أي بالواو ، حتى لا تكون هذه الجملة مبينة أو مؤكدة لما قبلها ، بل تكون مستقلة فيها صفتان من صفات الله تعالى ، نبه بذكرهما – بطريق الكناية والتعريض – على أن الأولى بمن اعتدى عليه أن يصفح ويغفر .

ولكن يبقى السؤال : لم أوثرت الكناية هنا ، ولم لم يقل – كما في آيات أخر – وأن تعفوا أقرب للتقوى مثلاً ؟

وقد أجاب بعض المفسرين بأن المعاقب لمن اعتدى عليه كثيراً ما يغلبه أن يلتزم التماثل التام بين الإساءة والعقوبة عليها ، فأشار الله سبحانه إلى أنه يعفو ويغفر لمن بغي عليه بعض ما تجاوز فيه ، خاصة وأنه وعده بالنصر لأنه مظلوم ، وفي التعبير بالنصر هنا ما يؤكد هذا الجواب .

وربما صح لي أن أضيف شيئاً إلى ما قاله المفسرون .

يبدو لي – والله أعلم بمراده – أن ذكر الغفران والرحمة والحلم والعفو في كل هذه الآيات إنما هو إشارات إلى أن بعض هذه المخالفات سيقع كثيراً فيما يستقبل من الزمان ، وأن هذه المخالفات ليست من الكبائر التي تشدد فيها العقوبات ، فمثلاً (الحلف) فشا في الأزمنة المتأخرة ، وكثرة الحلف اللغو ، بل كثرة اليمين المنعقدة إذا حنث فيها ، والتي ليست غموساً ليست من الكبائر . كما أن إدناء بعض النساء من جلابيبهن قد قلت العناية به في كثير من الشعوب ، والذي يرد الاعتداء فلا يلتزم الحد الواجب أكثر من أن يحصى ، فناسب أن يجيء مع هذه التشريعات ذكر المغفرة والرحمة والعفو والحلم . ولذلك نجد الآيات التي عرضت لكبار الذنوب ختمت بتشديد العقوبات ، فآيات القتل والسرقة والزنا وشرب الخمر لا ظل فيها لذكر المغفرة والرحمة إلا مع التوبة منها ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان : ٦٨ – ٧٠] .

وقد روى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنين : والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ... الآية ، ثم نزلت : إلا من تاب . فما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط مثل ما فرح بها ، وفرحه ، بإنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور : ٤ – ٥] .

فأما قوله تعالى : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور : ٣٣] ، فالمراد – والله أعلم – غفور رحيم لهن لا لسادتهن ، وروى أنها في مصحف ابن مسعود – رضي الله عنه – كذلك وكان الحسن – رحمه الله – إذا قرأها ، يقول : لهن والله ، لهن والله .

ولعل السر في ذلك أن الإكراه ربما كان دون ما اعتبرته الشريعة ، وهو الذي يخاف منه التلف ، فكن بقبول البغاء آثمات .

وأمر آخر بدا لي بعد ما أطلت النظر في هذه الآيات الكثيرة التي ختمت بالغفران والرحمة والعفو والحلم والرأفة ، وما إلى هذه الصفات التي تبعث في نفوس المؤمنين الأمل والرضا ، وتفتح لهم طريق العودة إلى الله مع كثير من الرجاء .

ذلك الأمر هو أن القرآن الكريم يؤثر جانب الوعد على جانب الوعيد ، فضلاً من الله ونعمة ، فهو سبحانه يلفت نظر المسلم وقلبه حتى في المواضع التي تتملكه فيها الرهبة إلى أنه – جل وعلا – غفور رحيم . وهذا – إذا صدق الإيمان – لا يدعو إلى التعاون ، بل ربما بعث في نفس المؤمن الخجل والحياء من الله ، أن يكون هو مقيماً على معصية الله ، والله سبحانه يعده العفو والحلم . وبذلك يشتد إقباله على الله ، وتقوي رغبته فيما عنده .

ولعل مما أعانني على هذا الفهم أن القرآن الكريم في بعض المواضع التي ترتعد فيها النفوس من قسوة الوعيد يلاطفها بحسن الوعد ، لعلها ترجع بالترغيب ، كما ترجع بالترهيب .

لنقرأ قوله تعالى : ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٧] فقد وقف المفسرون ، والناظرون في معاني القرآن الكريم عند قوله تعالى : ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وكيف جاء مع افتراض تكذيب أهل مكة للرسول ، وكيف جاء مع وصفهم في آخر الآية بأنهم قوم مجرمون ؟ وقالوا إن التناسب غير واضح .

وممن ذكروا ذلك صاحب ( البرهان ) حيث قال : ( ذو رحمة واسعة مع أنه ظاهر الخطاب ذو عقوبة شديدة ، وإنما قال ذلك نفياً للاغترار بسعة رحمة الله تعالى في الاجتراء على معصيته فإنه مع ذلك لا يرد عذابه عنكم ) .

وقول الزركشي هذا واضح التكلف ، فإن الآية لا تدل على منعهم من الطمع في سعة رحمة الله ، بل الذي يتبادر إلى الذهن أن هذا إطماع لهم في أن يرجعوا عن كفرهم ، فيدخلوا في سعة رحمة الله ، ومع هذا الإطماع نبههم إلى أن الله سبحانه –مع سعة رحمته– ذو بأس شديد لا يرده عن القوم المجرمين الذين لم تغرهم رحمة الله فظلوا على إجرامهم .

ولننظر – أيضاً – إلى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار : ٦] وقد أطال العلماء في بيان سر التعبير بالكريم في هذه الآية ، وقالوا أن النظم كان يقتضي : ما غرك بربك القهار ، أو الجبار ، أو المنتقم – مثلاً – لأن كونه كريماً يشجعه على الاغترار بكرمه ، ولذلك روى عن أبي بكر الوراق أنه قال : لو قال لي : ما غرك بربك الكريم ؟ لقلت : غرني كرم الكريم . وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال ربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته كأنه لقنه حجته في الإجابة ، حتى يقول : غرني كرم الكريم .

والذي روى عن العلماء في تفسير الآية فيه ما هو متقابل ، فبعضهم يتمشى مع السياق الطبيعي للآية ، وروى أن الله سبحانه أراد أن ينبه عبده إلى أنه –جلت قدرته– كريم ، يعطي بغير منٍّ ، وبغير انقطاع ، وأن الإنسان ما كان ينبغي له أن يغتر بسعة هذا العطاء ، بل كان عليه إن كان سليم الفطرة أن يتخذ من هذا الكرم باعثاً له على عدم الاغترار ، وعلي الاجتهاد في العبادة ، وعلي صدق الإيمان ، فكثرة

الكرم – كما يقول الرازي – توجب الجد والاجتهاد في الخدمة ، والاستحياء من الاغترار والتواني .

ونظَّر بعض المفسرين هنا ببيت امرئ القيس :

أغرَّكِ مني أنَّ حبَّك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

مع أن بعض النقاد عابه قائلاً : إذا لم يغرها هذا منه فماذا يغرها ؟

ولكن أهل التدقيق في المعاني أجابوا عن امرئ القيس بأن هذا مبالغة منه ، وتيئيس لها من أن يغرها هذا ، مع أنه موجب للغرور ، ولكن عند غيره ، أو مع غيرها وكأنه قال: إذا كان هذا يغر – وهو ولا شك كذلك – فما ينبغي أن يغرك مني ، لأني ، وإن بلغ بي حبك ما بلغ ، وإن كان قلبي يستجيب لك في كل ما تأمرين به – أملك ناصية أمري ، وأستطيع أن أتغلب على كل هذا الضعف في نفسي ، فأنا محب ، خاضع للحب ، ولكن أنكر عليك أن تخدعي فتغتري بهذا مني .

ويمكن أن يقال : إن هذه الصفات متصل بعضها ببعض ، أي ما غرك بربك الذي تكرم عليك بأن صورك في صورة حسنة ، وهو إذا شاء جعلك في أية صورة أخرى ، هو منعم وهو قادر فلا ينبغي أن تغتر بمن هذه صفاته .

ومع كل هذه التخريجات لا نغفل أن الله سبحانه – وهو أعلم بمراده – أراد أن يرغب عباده في عفوه ومغفرته وكرمه وألاَّ يجعل اليأس من كل ذلك يسيطر على نفوسهم .

ولعل جُمَّاع ذلك كله قوله تعالى : ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر : ٥٣] .

ويبدو للدارس في بعض الأحايين أن هاتين الصفتين ( المغفرة والرحمة ) تجيئان لمجرد وصف الله تعالى بهما ، دون أن يكون هناك ذنب يشار إليه في الآية ، وكأنَّ القرآن الكريم يقول : حتى لو توهم أن هناك ذنباً فإن الله غفور رحيم .

نقرأ قوله تعالى في سورة النساء : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً

فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

فالقرآن الكريم وصف بعض الذين لم يهاجروا بأنهم مستضعفون في الأرض ، وبأنهم لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً ، فهم لا يجدون وسيلة للهجرة بسبب الفقر والعجز ، وليس لهم علم بالمسالك فليس عليهم إذن جناح ، وقد أخرجهم الله سبحانه وتعالى من الوعيد السابق للذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، فما المراد بقوله : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا﴾ ، وعم يعفو ؟ إن هذا وعد من الله سبحانه ، وعد مؤكد بالعفو عنهم ، ولكن القرآن لم يشر إلى ذنب ارتكبوه ؟ فما السر ؟ لقد أجاب صاحب الكشاف بأن هذا للدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيَّق لا توسعة فيه ، حتى إن المضطر البيّن الاضطرار من حقه أن يقول : عسى الله أن يعفو عني ، فكيف بغيره)! . وهو – بذلك – يقرر أنه لا ذنب لهؤلاء إلا مجرد الخوف من أن يكون تأخرهم مع اضطرارهم ذنباً ، مع ذلك وصف الله سبحانه نفسه بأنه عفو غفور لتكون هاتان الصفتان على ذكر دائم من المؤمنين الذين عاقتهم ظروفهم – المادية والجسدية والنفسية من الهجرة .

والقرآن الكريم وصف ( الرجل ) بأنه خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله وبأنه حين مات دون غايته وجب أجره على الله ، فأي ذنب جناه هذا المهاجر ؟ لعل ذنبه أنه تأخر عن الهجرة في وقتها الواجبة عليه فيه ، فالله غفر له ذلك ، لكن القرآن يقول : ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي إنه لما هاجر خالص النية لله ولرسوله كان ذلك كافياً في أن تكفل الله له بالأجر ، وإن لم يبلغ غايته التي هاجر إليها ، فوصف الله سبحانه نفسه هنا بالغفران والرحمة لتذكير المؤمنين بهاتين الصفتين الكريمتين .

وقد أطلت في هذا الموضع لأن الآيات التي ذكرت فيها هذه الصفات : (الغفران – الرحمة – الرأفة – العفو) كثيرة في القرآن الكريم ، وبعضها يحتاج إلى وقفة واعية متأملة ليصل الدارس إلى سر ذكرها في هذا الموضع أو ذاك .

ومما أشكل على الدارسين من الفواصل ما جاء في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر : ٤١] فقد وقع في بعض الأوهام أن يكون التذييل في هذه الآية : (إنه كان عليا قديرا) أو ما إلى ذلك ، أي أنه كان المناسب – على ما توهموا – ذكر القدرة لا ذكر الحلم والغفران .

وقد أجاب بعض المفسرين بأن هؤلاء المشركين كانوا يستحقون إسقاط السماء عليهم ، وخسف الأرض بهم ، ولكن الله سبحانه حليم غفور فلم يعاجلهم بالعقوبة ، واستأنسوا في هذا الموضع بقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم : ٨٨ – ٩٢] .

ولكن المتأمل في الآية الكريمة لا يجد إشارة إلى ما ذكره المفسرون ، فليس في هذه الآية ، ولا في الآيات التي سبقتها ما يشير إلى أن الكفار يستحقون العذاب بإسقاط السماء أو بخسف الأرض ، على أن ذلك إذا كان حلماً فلمن يكون الغفران؟

أَلِلَّذين تحدثت عنهم الآية السابقة ، والذين يستحقون العقوبة بإسقاط السماء أو خسف الأرض : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر : ٤٠] . أم لغيرهم ممن لم يرد لهم ذكر في الآيات السابقة واللاحقة ؟!

وربما صح أن نقول إن إمساك السموات والأرض إبقاء لنعم الله على الخلائق ، وإبقاء للجنس البشري الذي لابد وأن تقع منه المعاصي ، فالله حليم يبقى العاصين يتمتعون بهذه النعم التي اشتملت عليها السموات والأرض ، التي لا يستطيع أحد غيره أن يحتفظ بها ،

والله غفور يغفر لهؤلاء العاصين ما يقع منهم من الذنوب ما عدا الشرك كما جاء في آية أخرى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء : ١١٦].

ولا يزال الملحظ الذي لاحظته في الآيات السابقة متجهاً هنا في هذه الآية الكريمة ، على أن ذكر القدرة هنا يغنى عنه ما جاء في الآيتين الكريمتين ، فالقرآن يتحدى هؤلاء الذين أشركوا أن يدلوه على ما خلق شركاؤهم من الأرض ، وأن يدلوه على كتاب أنزل إليهم فهم على بينة منه ، ويؤكد لهم أن الله سبحانه هو – وحده – الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، فكأن الآية جاءت بشيء جديد حين ختمت بالحلم والمغفرة ، حتى يفكر الدارس للقرآن ، ويطيل التفكير ليعرف ما أشارت إليه الآية ، ولا يكتفي بالنظر العابر .

****

ومن الفواصل المشكلة ما جاء في سورة الملك آية ١٩ : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ ، فربما توهم أن الأولى أن تختم الآية – مثلاً بـ ( أنه على كل شيء قدير ) ولكن التأمل الواعي يحكم بأن ختم الآية يجب أن يكون ما عليه التلاوة ، ذلك أن ذكر الصف والقبض هنا يدل على الصفتين اللتين يكون عليهما الطير في طيرانه ، وخلْق الطير على الصف والقبض ، وتزويده بما يصلح لكل منهما ، وإيجاد الأجزاء الدقيقة في جسمه التي تمكنه من الطيران والوقوع ، وإلهامه كيف يصفُّ ويقبض ، وكيف يطير ويقع كل ذلك لا يكون إلا من ( بصير ) عالم بدقائق الأمور وجلائلها ، وبكيفية إبداع المبدعات : ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

وقد ذكر الفخر الرازي سؤالاً وأجاب عنه ، قال : ( إنه تعالى قال في النحل ) : ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ . وقال هنا : ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ . فما الفرق ؟ قلنا : ذكر في النحل أن الطير مسخرات في جو السماء ، فلا جرم كان إمساكها هناك محصن الإلهية ، وذكر ههنا أنها صافات وقابضات فكان إلهامها إلى كيفية البسط والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن ) .

****

وقد تتحد آيتان أو أكثر وتختلفان في التذييل ، وقد يكون التذييل واحداً والآيتان مختلفتين قبله .

مثال النوع الأول قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل : ١٨] جاء تذييلها في سورة (إبراهيم) : ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم : ٣٤] وفي سورة النحل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل : ١٨] .

قال الزركشي في البرهان : ( من بديع هذا النوع اختلاف الفاصلتين في موضعين والمحدث عنه واحد لنكتة لطيفة ) . وبعد أن ذكر الآيتين السابقتين قال : ( قال القاضي ناصر الدين ابن المنير ( م ٦٨٣ هـ ) في تفسيره الكبير ( البحر الكبير في نخب التفسير ) : كأنه يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها ، وأنا معطيها ، فصح لك عند أخذها وصفان : كونك ظلوماً وكونك كفاراً ، ولي عند إعطائها وصفان ، وهما : إني غفور رحيم ، أقابل ظلمك بغفراني ، وكفرك برحمتي ، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ، ولا أجازي جفاءك إلا بالوفاء . انتهى .

وهو حسن ، لكن بقي سؤال آخر – هكذا يقول الزركشي – وهو : ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم ، وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه ؟

والجواب : أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان ، وما جبل عليه ، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه ، وأما آية النحل فسبقت في وصف الله تعالى ، وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته ، فناسب ذكر وصفه سبحانه .

فتأمل هذه التراكيب ، ما أرقاها في درجة البلاغة ! انتهي كلام الزركشي .

وقد ذكر الفخر الرازي عند تفسيره آية إبراهيم : أنه تأمل الفرق بين آيتي إبراهيم والنحل ، وأنه لاحت له دقيقة ، ثم ذكر ما نقله الزركشي عن ابن المنير ، فالكلام للرازي ، وقد نسب لابن المنير ( توفي الرازي سنة ٦٠٦ هـ ) أي قبل ابن المنير بزهاء ثمانين سنة ) .

****

ومثاله أيضاً ما جاء في سورتي الجاثية وفصلت : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ، وقد ختمت آية الجاثية بقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية : ١٥] وختمت آية فصلت بقوله – علت كلمته – : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦] .

وقد أجاب صاحب البرهان بأن الختام في الآية الثانية مناسب ، أما في الأولى فحكمته أن قبلها : ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ فناسب الختام بفاصلة البعث ، لأن قبله وصفهم بإنكاره .

****

وقد أورد الزركشي في هذا المقام آيات سورة المائدة : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ حيث ختمت الأولى بـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والثانية بـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والثالثة بـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وذكر لذلك بعض الأسرار ، ثم قال : ( وقيل الكافر والظالم والفاسق كلها بمعنى واحد ، وهو الكفر ، عبر عنه بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة ، واجتناب صورة التكرار ) .

والذي يعنينا من هذا القول أن من العلماء من أجاز تفنن القرآن الكريم في التعبير لاجتناب صورة التكرار .

****

ومثال النوع الثاني قوله تعالى في سورة النور آية ٥٨ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ....﴾ إلى قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وقوله سبحانه بعد هذه الآية : ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

وقد فسر ابن عبد السلام – في الأولى – ( عليم ) بمصالح عباده ( حكيم ) في بيان مراده . وفي الثانية : ( عليم ) بمصالح الأنام ( حكيم ) ببيان الأحكام .

قال الزركشي بعد أن نقل هذا التفسير : ولم يتعرض للجواب عن حكمة التكرار . ولم يزد الزركشي على ذلك .

قلت : ولم نستفد شيئاً لا من ابن عبد السلام ولا من الزركشي . أما ابن عبدالسلام فلم يتعرض لمناسبة هذين الوصفين لكل من مضمون الآيتين ، ولعله ظن أن المناسبة واضحة .

وأما الزركشي فقد عاب صاحبها أنه لم يتعرض لحكمة التكرار ، وسكت هو عن هذه الحكمة .

وقد ذكر أبو السعود أن التكرير للتوكيد ، والمبالغة في الأمر والاستئذان ، ويصح أن يقال إن موضوع الآيتين واحد ، وهو بيان أداب الاستئذان ، غير أنه في الأولى ذكر استئذان الموالي والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، والأوقات التي ينبغي استئذانهما فيها ، وما عداها فليس على الجميع جناح إذا لم يقع استئذان ، وفي الآية الثانية ذكر استئذان الأطفال الذين بلغوا الحلم .

ولما كان في هذا البيان ما يدفع كثيراً من الأضرار المتوقعة ، ناسب أن تجيء صفة العلم ، لأنه وحده العالم بخفيات الظواهر والبواطن ، ولا شك أن في الأمر بهذا الاستئذان حكمة بالغة حتى تتجنب الأسر المفاسد .

وربما كان في متعارف الأسر والجماعات أن هؤلاء الذين طلب استئذانهم شديدو المخالطة لمن يستأذنون عليهم وعليهن ، ومن هنا يقع التسامح معهم . الذي ملكته اليمين ، والطفل لم يبلغ الحلم والطفل بلغ الحلم . . كلهم أصحاب صلة وثيقة ، والقرآن نفسه يقول : ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فلا جرم يكون أمرهم بالاستئذان حكمة بالغة من الذي يعلم السر وأخفي ، وتهيئة لنفوس المؤمنين أن تتقبل هذا الأمر ، وأن تحافظ عليه لأنه من عليم حكيم .

وكم وقع ويقع من المفاسد بسبب ترك هذا التأديب الإلهي ، بل كم وقع ويقع من الأضرار النفسية التي تتمكن من نفوس الأطفال حين لا يحول بينهم وبين الدخول على أهليهم في الأوقات التي ينبغي أن لا يدخلوا فيها إلا بعد إذن ، وربما

دفعهم هذا العامل النفسي إلى ارتكاب القبح ، فوق ما يسبب لهم من القلق والاضطراب العاطفي. فسبحانه وتعالي ما أجل حكمته ، وما أصدق علمه .

وهذا الذي ذكرت كما أنه يبين مناسبة التذييل لكل من المحدث عنه في الآيتين ، كذلك يبين حكمة التكرير ، فالنفوس حين تنبه إلى أمر لعلها لا تباليه بالة ، ولا ترفع له رأساً تحتاج إلى تأكيد ما يدعوها إلى الامتثال ، وما ينبه إلى خطر التهاون ، ذلك أن الذي شرع هذا الأدب الاجتماعي هو العليم الحكيم .

****

إلى هنا نَثْني عنان القلم ، مع أمل أن يتاح لي أو لغيري أن يوفق إلى بيان الأسرار في بقية الفواصل التي قد تغمض الأسرار فيها.

وأكاد أكون اقتصرت على لون واحد منها ، وهناك لون آخر يحتاج إلى جهد متواصل ، وإلي نظر واع ، ذلك هو الذي تنتهي فواصله بمثل هذه الكلمات : (يؤمنون - يتذكرون - يتفكرون - يعلمون - يسمعون - يعقلون - يوقنون) . وهي فواصل كثيرة في القرآن .

ولون ثالث تنتهي فيه الفواصل بمثل ( السميع العليم - السميع البصير - اللطيف الخبير - الواحد القهار - العزيز الجبار ) .

ونوع رابع وخامس وسادس . وكل هذه الأنواع تحتاج إلى دراسة متفطنة ، وإلي جهد متواصل .

والتوفيق والعون من الله وحده .

****